التصوير الفني للأرض والرياح في القرآن الكريم

دة. نادية لقجع جلول سايح
جامعة سيدي بلعباس

إن ما يربط الإنسان بالأرض أكبر من أن يكون مجرد وطأة قدم، فلقد خُلق من ترابها وسيدفن تحته يوما، وتنعّم بخيراتها، وستشهد عليه يوما، قال تعالى: (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) [سورة الزلزلة : الآية 4]، إنه متفوق بفضل الله عن كل المخلوقات الأخرى لغة وذكاء وتفكيرا وابداعا وعاطفة، وإنه بذلك الرابطة التي تصل هذه الأرض بالسماء. سنحاول من خلال هذا البحث الوقوف على الصور البلاغية والمشاهد الحركية للأرض والرياح في بعض من آي القرآن الكريم.

1. الأرض:

تحتوي الأرض على جملة هائلة من المتحركات حتى لتبدو وكأنها القطب الفاعل والمتحرك بفعل قوة أخرى هي الماء:

قال تعالى: (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5))» (سورة الحج)

تتناسق صورة الأرض الهامدة مع السياق الذي وردت فيه، والذي يتحدث عن الإحياء بعد الموت، إذ إن همود الأرض يتماثل مع همود الموتى في القبور، كما تتماثل عملية إخراج الموتى

وإحيائهم مع صورتها وهي تهتز وتربو، ويتمثل الطاهر بن عاشور في تحريره، همود الأرض بمنزلة موت الإنسان، واهتزازها وإنباتها بعد ذلك يماثل الإحياء بعد الموت [1]».

فبعد مشهد الجفاف الذي يتميز بالسكون المطبق، الذي تعبر عنه الوحدة الدالة «الهمود»، والتي تعني جفاف الأرض وزوال نبتها؛ مثل همود النار إذا خمدت [2]، يتجلى مشهد حركي ناعم بهدوئه: (اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)

إن الاختلاف بين المشهدين قائم، لأن الهدوء في المشهد الثاني لا يعني السكون، وإنما تتمثل حركيته في سمة التحوّل الذي تشهده الأرض بعد عملية الانزال: (أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ)، فالاهتزاز هو التحرك إلى أعلى، واهتزاز الأرض تمثيل لحال ارتفاع ترابها بالماء، وحال ارتفاع وجهها بما عليه من العشب، مثل الذي يهتز ويتحرك إلى أعلى. بالإضافة إلى المعيار الجمالي لكل منهما القبح/ الجمال. لأن «خشوع الأرض هو ما يظهر عليها من استكانة وشعث بالجدب، وصليم السموم، فهي عابسة كما الخاشع عابس يكاد يبكي» [3]، أما البهيج هو الحسن المنظر السار للناظر»[1]، في حين يتمثل وجه الشبه بينهما في الصمت الذي يغشاهما.

---

[11] الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج. 17، الدار التونسية للنشر، 1984، ص. 203

[2] ينظر المصدر نفسه، ص. 203

[3] ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، تح. عبد السلام عبد الشافي محمد، ج. 5، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 2001 ص. 18.

إن هذا السكون الذي تعرفه الأرض، هو سكون آني لن يدوم أو يستمر طويلا، وذلك على صعيدين:

الصعيد الأول: هو الوجه المقابل لها لقوله تعالى: (إِذَا زُلْزِلَت الأَرْضُ زِلْزَالَهَا)

الصعيد الثاني: أنه بمجرد حضور عنصر الماء، تتملص الصورة من جمادها، لتصبح صورة حية متحركة.

وللفعل «اهتزت» هنا لمسة ساحرة خفيفة تدل على بداية تفتق الحياة فيها، وكأنها من قبل كانت ميتة، فحين يحدث التزاوج بين الأرض والماء ثمة فقط يحدث التغيير:

من	←	إلى
الموت	←	الحياة
السكون	←	الحركة
القبح	←	الجمال
التجرد	←	الاخضرار

تلبس الأرض حلة خضراء مزدانة بألوان الربيع قال تعالى: (وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4)) (سورة الرعد)

ينظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج. 17، ص. 204.

إن الحلة الربيعية الخلابة التي تلبسها الأرض لا يُعرَف لها تقييما إلا بوجود العنصر البشري، فهو الفاعل والمتفاعل الذي جعله الله خليفة ويوأه فيها، يتخذ من سهولها قصورا.

قال عز وجل: (وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74)) (سورة الأعراف)

قال تعالى: (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15)) (سورة النحل)

انطبعت صورة الأرض وعناصرها (السهول، القصور، الرواسي، الأنهار، الجبال، والدواب، والبشر) انطباعا كليا في ذهنية المتلقي، أو بعدسة المصور، بما تملكه من تأثير قوي على إنتاجه للمعنى وتراكم الصورة الجزئية، وبعض الصفات المتعالقة معها. قال تعالى: (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا (61)) (سورة البقرة).

تمثلت عناصر المأكولات في البقل، والقثاء، والفوم، والعدس، وإلى ما ذكر في آيات أخرى مثل التين، والزيتون، والعنب، والفاكهة.

ومن المباني: منها القصور والمساجد والبيوت.

أما الصفات: فتمثلت في الخشوع قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)) (سورة فصلت).

أثارت الصورة الأولى حقلا من الصور المدعمة لها دلاليا، والمشابهة لها في الطبيعة والإنتاج، أي إنها بمثابة نقطة أولى لانطلاق متوالية من الصور الكثيرة لم نأت على ذكرها كلها: (كالأثقال، والماء، والجنود، والخزائن، والألوان: «الاخضرار»، الزخرف، اهتزت وربت، العيون، وكل صورة تمثل إيقونة بذاتها تتمظهر في أشكال هندسية وألوان وروائح، ومذاق وأحاسيس» الحرارة/ البرودة.

ويمكن استجلاء بعض هذه السمات في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27)) (سورة فاطر)

تعمل «ألوان الصخور وتعددها وتنوعها داخل اللون الواحد بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار، تهز القلب هزا، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي، التي تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية، فتراه في الصخرة، كما تراه في الثمرة، على بعد ما بين طبيعة الصخرة وطبيعة الثمرة، وعلى بعد ما بين وظيفتهما في تقدير الإنسان، ولكن النظرة المجردة ترى الجمال وحده عنصرا مشتركا بين هذه وتلك، يستحق النظر والالتفات» [1]، واللون حين يتعلق بالثمار فهو يفتح مجالا آخر يتمثل في الرائحة، التي تميز بين المتشابه اللوني (أصفر/ أصفر)، (أحمر/ أحمر) مثلا، وذلك بدوره يفتح مجالا آخر يتمثل في الذوق وكأنه باختلاف اللون والرائحة يختلف مذاق الأشياء (الأطعمة).

[1] سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد. 5، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط. 3، 1977. ، ص. 2942.

2. الرياح:

وردت كلمة الريح في القرآن الكريم ثماني عشرة مرة، وهي وسيلة عذاب على الكافرين والمشركين والمعاندين لله ولرسله، فهي ترسل على الكافرين تغرقهم بما كفروا، ومن ألوان العذاب في الريح أنها ريح عاصف، وصرصر، وعاتية، ومصفرة، وعقيم، وفيها صر، وعذاب، ويومها نحس، وأيامها نحسات، وهي تنقل المواد: خفيفها كالرماد، وكبيرها كالجلمود، وتهوي بمن يشرك بالله في مكان سحيق، ومن فعلها أنها تدمر وتشتد وتغرق، وتهوي وتجري، وإن سكنت ظلت الفلك رواكد على ظهر البحر، وهناك الريح الطيبة مثل ريح الصالحين التي وجدها نبي الله يعقوب في قميص يوسف عليهما السلام، وقد سخرها الله لنبيه سليمان تجري بأمره رخاء حيث أصاب في دورة غدوها شهر ورواحها شهر، وهي جند من جنود ربك يبعثها الله في الحرب على أعدائه هلاكا ودمارا [1]. فكلمة «الريح» في القرآن الكريم تأتي حين ذكر العذاب والدمار والعقاب، في حين تأتي كلمة «الرياح» مع البشرى والخير والسلام.

قال تعالى:(اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِه فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (49)) (سورة الروم)

---

[1] حسني حمدان الدسوقي حمامة. الظواهر الجغرافية بين الآيات القرآنية والنظريات العلمية، عن كتاب الإعجاز في القرآن والسنة، كتاب غير دوري يصدر عن جمعية الإعجاز العلمي للقرآن والسنة بجمهورية مصر العربية. العدد، 03. ط 1. 2000. ص. 110-111.

عند قراءة الآية الكريمة للوهلة الأولى، يتراءى للقارئ سؤالا عريضا: كيف تلتقط عدسة الكاميرا مشهد الريح، وما العلاقة بين الرياح والسحاب؟

تسوق الرياح بخار الماء المتبخر من البحر، متخذة المسار التصاعدي (من-إلى): من البحر إلى السماء، وبعد أن يبسطه الله في السماء ويفرشه ويمده، تأتي الرياح الأفقية بأمر ربها وتقوم بتجميعه، وتكثيفه، وتراكمه بعضه فوق بعض، وهذا ما تعجز آلة التصوير على التقاطه، «أو يصطدم بعضه ببعض، أو تنبعث شرارة كهربائية بين طبقة منه وطبقة، أو كسفة منه وكسفة» [1]، حينها يتساقط المطر من خلال هذا السحاب (فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ) فيستبشر العباد خيرا ورزقا منه، وفي ذلك رحمة لأن «عامة المواضع التي ذكر الله تعالى فيها إرسال الريح بلفظ الواحد فعبارة عن العذاب، وكل موضع ذكر فيه بلفظ الجمع فعبارة عن الرحمة» [2].

إن المشهد ها هنا طافح بالخير والرزق الوفير، وإنك لتكاد ترى ملامح البشرى والفرح على وجوه الناس، يعود إليهم النشاط والحركة التي طالما كُدِّست يأسا، وقنوطا، وهمودا، قبل أن ينزل عليهم المطر. فالرياح إذا بإمكانها أن تكون النعمة أو النقمة. فالنعمة في استبشار النفوس بعد القنوط، وخصب الأرض بعد

---

[1] سيد قطب، في ظلال القرآن، ج. 5، ص. 2775.

[2] الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد، ، المفردات في غريب القرآن، تح. محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
مادة (روح)، ص. 206.

الجحود، «وفي الحياة التي تدب في التربة وتدب في القلوب» [1]، أما النقمة فمؤشرها اللون الذي تكون عليه هذه الريح، فإذا كانت الأولى محملة بالماء الحي، فإن الثانية حمولتها الرمل والتراب المميت والمهلك للزرع (وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51)) (سورة الروم)

إن النعمة أو النقمة مرهونة بالسحاب الذي أثارته الرياح/ الريح، فبقدر درجة الإثارة يكون الجزاء/ العقاب، ولا بد من وضع خط عريض تحت كلمة «تثير» التي تحمل معنيين متلازمين، وهما يتمثلان في الإظهار والتهييج، فهي تظهر شيئا لم يكن له وجود مسبق وهو السحب، فقد كانت قبل كل شيء ماء في محيط، وبعد أن يتشكل سحبا تقوم بتهييجه بعد تجميع القطع المتجاورة، فإذا انهمر المطر دون صخب أو رعد أو صاعقة أو برد، فإنه يحقق بعض السيمات الإيجابية: البشرى، الفرح، الغبطة، اللاخوف.

وبعد تجميع هذه القطع المتجاورة وتأليفها، يكون الانتقال إلى مرحلة أخرى في دور جديد للرياح؛ بحيث يركم السحاب بعضه فوق بعض حتى يصبح كالجبل لقوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (43)) (سورة النور)

---

[1] سيد قطب، في ظلال القرآن، ج. 5، ص. 2775.

اجتمعت في هذه الآية الكريمة كل الأدوات التصويرية من أشكال وألوان، وأحجام وحركة، وهيئة وخطوط ومساحة، تلاحمت معا لتشكل مشهدا تصويريا يفوق كل وصف؛ بل يستحضره في أدق تفاصيله، وقد ساعدت على ذلك أدوات الربط المستعملة في الآية الكريمة (ثم / الفاء)، فالأولى تفيد الترتيب والتراخي، في حين تفيد الثانية الترتيب والتعاقب السريع، فبعد أن يسوق الله برفق تلك السحاب، وذلك يتطلب مدة من الزمن نظرا للمراحل التي يمر بها وهي التجميع والتأليف والركام، حين ذلك تأتي حرف العطف (الفاء) ودون تراخي أو تباطؤ: (فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ).

الصورة الحركية الأولى: (يُزْجِي سَحَاباً) إن يد الله سبحانه وتعالى تجزي السحاب، فتسوقه أو تدفعه من مكان إلى آخر في حركة أفقية نسبية الاتجاه، والقارئ ها هنا يستحضر المشهد على مهل ليتأمله في جزئياته قبل أن يتحد.

الصورة الحركية الثانية: (ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً)، تجتمع الأجزاء وتصير كتلة واحدة عملاقة، في هيئة الجبال الضخمة الكثيفة .

يتخيل الناظر إليها من أعلى المركبات الفضائية بأنها قمم جبلية، وكأن هذه الجبال حقيقية «بضخامتها ومساقطها وارتفاعاتها وانخفاضاتها» [1].

الصورة الحركية الثالثة: (يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ) تتلاءم الصورة الضوئية مع جو النور الكبير في الكون العريض وهو تناسق لا تجده إلا في مثل هذا التصوير الإلهي.

---

[1] سيد قطب، في ظلال القرآن، ج. 4، ص. 2522.

الصورة الحركية الرابعة: (وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً (16)) (سورة النبأ)

تؤدي الريح –دائما– دورها الفعال في نوعية الماء الذي تتكرم به السحب، فالتيارات الهوائية المتعاكسة التي تحدث لقاء جبهتين من السحاب، تمثل الإعصار أو ما يشبه الدوامة التي ترفع معها بخار الماء، لتكوين قطرات ثقيلة بحجم يزداد بقدر زيادة الارتفاع، ثم تنزل مثقلة في تقطع وتعاقب، تسفر في النهاية على الحَب والنبات. فأي عدسة بإمكانها أن تستوعب هذا كله، وأيّ مخرج فذّ بإمكانه أن أن يركّب مثل هذه المشاهد؟